حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

ابن مسعود
داعية التفسير الأثري عند أهل الكوفة*

الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي
كلية الآداب / جامعة الكوفة

إذا كانت العملية التفسيرية هي عبارة عن توظيف قدرة العقل البشري لاستنطاق مضامين النص القرآني فإن هذا المنطلق لأداء تلك العلمية لا بد له من أن يقوم على جملة من المقومات التي تؤهل دلالته التفسيرية المستنبطة من النص من الدخول إلى نطاق الرضا وحيز القبول؛ فإذا كان الأمر كذلك فإنه لابد من القول بأن منهج التفسير الأثري هو أحد أكبر المنافذ التفسيرية التي تعين متأمل النص لبلوغ غايته من ذلك التأمل: إذ لا يسع أيَّ مفسر من أن يدلي بدلوه ما لم يكن قد اطلع ابتداءً على مثريات المنهج الأثري في ميدان الآية التي يبتغي تفسيرها: إذ يعد الأثر في التفسير مستندا رسمياً من مستندات البيان النصي لمفسر النص؛ ذلك بأن المنهج الأثري هو كل جهد مبذول لبيان معنى قرآني أو استجلاء دلالة نصَّية من التعبير المقدس صادرٌ عن الرسول والأئمة أو الصحابة أو التابعين؛ لأن الأثر في التفسير يعني كل ما ورد عن الرسول وآله والصحابة والتابعين مرفوعاً إليه، وهذا المنهج التفسيري معتمد في سائر المناهج التفسيرية الأخرى لأنه يمثل الخطوة الأولى في عالم التفسير القرآني تاريخياً.

فإذا ما سلم لنا ذلك فإنه يمكن أن تنفتح بالقول لنقرر بأن علماء الكوفة كانوا من أوائل الصحابة الذين انتهجوا مسلك التفسير بالأثر وكان رائدهم في هذا النسخ التفسيري هو ابن مسعود مقرئ أهل الكوفة وعالمهم في التفسير وداعيتهم إلى ذلك، إذا اتبع ابن مسعود هذا المنوال الاستبياني لإيضاح مكنونات النص القرآني بوصفه من رواد الصحابة الذين أخذوا عن الرسول مباشرة ونقول عنه عن طريقة الصلة المباشرة سمعاً ورؤيةً ومُعاصرةً، وبهذا كانت رواياته المأثورة عن الرسول الأكرم صادقة ومُتَحَرّاة الدقة لأنه لم ينقل عن غيره بالوساطة ليحتمل منه ورود الخطا بل كانت رواياته عن معاصرته شخصياً ومباشرته بنفسه للرواية بلا مسافة فاصلة لا من حيث الزمن ولا من حيث الحلقة الروائية، إذ تنعدم مساحة احتمال التحمل أو السهو عند ابن مسعود لهذه الدواعي، من هنا تكون روايته التفسيرية على وفق هذه الرؤيا عبارة عن مقولات بيانية غاية في الدقة والمتانة.

والأظهر لدينا أن علاقة ابن مسعود بالنص القرآني هي علاقة عشقية ضاربة بالقدم ذلك بأنه قد عَلَقَ بالنص منذ لحظة نزوله؛ وأدل ما يشير إلى هذا التقرير أنه ينقل بأن «ابن مسعود أول من جهَرَ بالقرآن بمكة، وذلك، أنه اجتمع يوماً أصحاب رسول الله فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهَرُ بلهَابه قط فمن رجلٌ يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا. قالوا إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني، فإن الله سيمنعني وغدا ابن مسعود حتى أتى المقامَ في الضحى وقريشٌ في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم: الرحمان علم القرآن.. ثم استقبلها يقرأها، وتاملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك. فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبُك، قد أسمعتَهم ما يكرهون» أن أدنى تأمل في هذا الرواية التاريخية -التي أقل ما يمكن أن توصف بأنها تمثل عظمة الرجل إزاء إثبات الحق والثبات عليه- يوصل إلى قناعة تامة بأن ابن مسعود كان قد ابتاع حياته بلا تردد إزاء شيوع وحي السماء على أذان المنكرين له ولم يك يخشى أي ضرر حتى لو وصل الأمر إلى أن يفقد حياته بكاملها فالأمر لا يعنيه بقدر ما يعنيه أن يتلوا كلمات السماء على شفتيه ترنُّما ليُري الكافرين نور اليقين على الرغم من أنه كان أعمى البصر، إذ يؤثر عن

(*) عن: مجلة الأصالة النجفية ع٢٧ لسنة ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

ابن مسعود أنه كان ضريراً لا يرى بيد أنه كان أعمى البصر فإنه كان نافذ البصيرة في الحق وفي معرفته بمقولات السماء والدعوة إلى فهمها وتمثلها عملاً ومنطقاً؛ من هنا حق له أن يكون رائد أهل الكوفة في ميدان التفسير بالأثر ذلك بان الكوفة تتمتع بمناخ رائق لتلقي العلم والمعرفة وخصوصاً بما يتعلق بالنص المعجز وكل ما يحيط به من قريب أو بعيد. وأما فيما يخص النسق الرُّتبي من حيث علو المقام في النطاق التفسيري فإن ابن مسعود يعد ثالث مفسر من الصحابة رتبةً؛ إذ يرد في هذه المرتبة بعد الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) وتلميذه عبد الله بن عباس، ذلك التلميذ النجيب الذي فقه القرآن بما فيه بتلقِّيه من أستاذه الإمام أمير المؤمنين: فـ«أول من تكلم في تفسير القرآن من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وهو أعلم المسلمين بكتاب الله وتأويله بلا مدافع، بل هو باب مدينة العلم. قال ابن مسعود: إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن علياً عنده من الظاهر والباطن. ثم عبد الله بن العباس حبر الأمة، وترجمان القرآن، ووارث ثلثي علوم رسول الله، وقد دعا له النبي بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» ولذلك كثرت الرواية في التفسير عنه حتى كان ما يقارب النصف من الأحاديث الواردة في التفسير، مسنداً إليه، ثم عبد الله بن مسعود، ذو المقام العالي بين المفسرين، وثاني ابن عباس في كثرة الرواية».

ونحسب أن هذه الرتبة العلمية لابن مسعود في نطاق البيان القرآني تدعو بالضرورة إلى أن يكن داعية أهل الكوفة في الحث والتحضيض على فهم القرآن والتعمق في معرفة دلالاته ومرادات السماء الكامنة فيه؛ وتأسيساً على هذا المنطلق فقد أُثرَ عن ابن مسعود جملة من المقولات التي حثَّ بها على النظر في النص القرآني واستجلاء دلالاته وبيان ما فيه مكنون معرفي قد غاب على الأذهان لا يستظهر إلا باعتماد على النتاج العقلي المسنود بالتفسير الأثري أثراء واستيضاحاً وتعضيداً؛ ومن جملة ما نقل عنه أنه قال: «إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين»، بهذا نفهم أن مناط العلم وموئله إنما هو النظر داخل النص من أجل فهمه وتفسيره للناس، لأن دعوة ابن مسعود بلحاظ فعل الأمر (أثيروا القرآن) فيها دلالة واضحة على أن النص هو مخزون مكتزن من العلوم والمعارف، وإن هذه العلوم إنما تستخرج بفوران النص وتفرُّعه دلالياً عن طريق التثوير أي أن النص أشبه بالبركان الذي يحتاج إلى من يهيجه حتى ينفجر فكذا الحال للقرآن فإنه ينفجر بالمعرفة على العقل البشري بالنظر فيه والتامل وإعادة التدبر المرة تلو الأخرى من أجل الوصول إلى نتاج تفسيري ثري يسهم في حل أزمة المجتمعات وما فيها من إشكاليات قائمة منذ نزول النص إلى ما يعاصرنا من حاضر.

وما روي عن ابن مسعود في دعوته لأهل الكوفة لتفسير القرآن: «أنه قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن» إن قوله أن الرجل لا يتجاوز الآيات العشر حتى يعرف ما بهن من معنى ويعمل بهن لدليل إلزامي بنص على أن قراءة القرآن لا يعتد بها إذا كانت عبارة عن لقلقة اللسان من دون فهم للمعنى أو عمل بذلك المعنى؛ إذ نص ابن مسعود في مقولته هذه صراحة على وجوب تفسير النص أو البحث عن تفسيره من أجل فهمه للوصول بالمحصلة إلى العمل بالنص المعجز لأن قراءة اللسان لفظاً من دون فهم أو تفهُّم ألفاظه والإطلاع على دواعي تراكيبه والخوض عمقاً وراء معرفة دلالته السياقية والباعث وراء توافق أجزاء النص مع ذلك السياق فإن عدم معرفة هذه الدواعي والاقتصار على قراءة النص تلفظاً فحسب؛ تعد عملية إرهاق لفظي غير مجدية إذ لا نفع من القراءة مع عدم الفهم ذلك بأن من أساسيات اللغة هو أن تتكون من الدال والمدلول فإذا لفظَ القارئ أو الناطق الدال دون معرفته بالمدلول فإن هذا يعد -والحال هذه- تجزيء للعملية الكلامية بما يفقد غايتها لأن الغاية من الدال (قراءة النص القرآني) هو الوصول إلى المدلول (تفسير النص وفهم معانيه) فإذا توقف الأمر عند حدود الدال عُدمَت العلمية الكلامية مرادها وغايتها نهائياً، ولا يعد كلام ابن مسعود وتحليلنا له دعوة إلى الإحجام عن قراءة النص القرآني بقدر ما ينظر إليها بأنها دعوة إلى الإلحاح على قراءة النص وفهم معانيه ليدرك المتلقي ما يقرأ وما يراد منه تحديداً وإلا يبطل اللازم ببطلان الملزوم. من هنا نصل إلى ابن مسعود كان عالي الكعب في نطاق النظر التفسيري وإنه كان يمثل داعية كبرى من دواعي فهم النص المعجز لأهل الكوفة سواء أكان ذلك متجسداً في نتاجه التفسيري الذي نقله عن الرسول الأكرم، أم في مقولاته الداعية إلى فهم النص وضرورة إيصال الدال بمدلوله لكي تتم الغاية من نزول النص على هذه الهياة الكلامية المعجزة.

* * *